مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية ISSN : 2353-046
المجلد5 ، العدد11، (سبتمبر 2017) EISSN : 2600-6421

مقدمة قصيدة المديح النبوي لدى شعراء البلاط الزياني

الأستاذة: قاع الكاف سامية

جامعة الجزائر02

profmath44@yahoo.fr

ملخص :

خضعت قصيدة المديح النبوي لدى شعراء البلاط الزياني في بنائها لنهج القصيدة العربية القديمة , فهي ليست من النوع البسيط ذي الغرض الواحد ,إنَّما هي من النموذج المركب الذي يتقاسمه قسمان أساسيان: قسم يتعلق بالمقدمات بأنواعها وأخر بالموضوع أو بالمديح .

وبقدر ما اختلفت أغراض القصيدة العربية نجد أن شعراء المديح النبوي داخل البلاط الزياني قد حرصوا على تصديرها بمقدمة أو بأنواع من المقدمات المعروفة في تراثنا الشعري القديم لاسيما تلك المقدمات الواسعة الانتشار كالطلل والنسيب والرحلة بالإضافة إلى مقدمة الشباب والشيب ,والتغزل بالبقاع المقدسة والتطلع لزيارتها. وهذا ما سنبينه من خلال الحديث عن مضامين المدحة النبوية داخل البلاط الزياني، وخاصة ما يتعلق بأنواع المقدمات .

مقدمة:

إن القارئ لشعر المديح النبوي في البلاط الزياني يخرج مبدئيا بتصور واحد فيما يتعلق بهيكل القصيدة .فهي ليست من النوع البسيط ذي الغرض الواحد ,إنَّما هي من النموذج المركب الذي يتقاسمه قسمان أساسيان: قسم يتعلق بالمقدمات بأنواعها وأخر بالموضوع أو بالمديح.

وهي بذلك ظلت وفية لبناء القصيدة العربية القديمة ,حيث يحرص الشاعر –على النحو الذي وصلنا –على أن يصدّر قصيدته بنوع أو بأنواع من المقدمات, وكان يستجيب لذلك العرف الذي أصبح يمليه نقادنا القدامى على المبدع ,وكانوا قد أسسوه من نظام

ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

القصيدة لدى الشعراء الأوائل .وهذا ما أكد عليه كل من ابن قتيبة وابن رشيق من بعده حيث ألحا على ضرورة التمهيد بين يدي القصيدة بمقدمة . وكانت تلك القصائد التي تتجه إلى الغرض مباشرة في نظرهم معيبة , واصطلحوا على تسميتها ب "البتراء "يقول ابن رشيق في هذا الصدد" ومن الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطا من النسيب ,بل يهجم على ما يريده مكافحة, ويتناوله مصافحة ....القصيدة إذا كانت على تلك الحال بتراء كالخطبة البتراء و القطعاء".[1]

أما ابن قتيبة فانطلاقا من ذلك النص النقدي الذي نسبه إلى غيره وتبناه في الوقت نفسه ,فإننا يمكن أن نستخلص منه ما يلح على ضرورة وجود تلك المقدمات التي تمهد للموضوع . أن الشاعر الذي يخرج عن ذلك النموذج إنما يعد شعره ناقصا ,لأن ابن قتيبة يرى ضرورة الالتزام بتلك الأجزاء من القصيدة بل يؤكد على ضرورة الالتزام بتلك الأجزاء من القصيدة ,بل يؤكد على ضرورة إحداث التوازن بينها.

يقول في هذا الإطار :"وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد إنما ابتدأ فيه بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها ,إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم من ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان . ثم وصل ذلك بالنسيب ,فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ,وليستدعي إصغاء الأسماع إليه,لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب ,لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وألف النساء ,فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له .عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب وسرى الليل وحر الهجير و إنضاء الراحلة والبعير ,فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء و ذمامة التأميل وقرر عنه ما ناله من المكاره في المسير ,بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزَّه للسماح وفضله على الأشباه....فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام,فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر ,ولم يطل فيمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى مزيد"[2]

[1]: ابن رشيق القيرواني :العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،ج1.تحقيق:محمد مجي الدين، عبد الحميد ، دار الرشاد الحديثة ،الدار البيضاء ، المغرب ص:231.

[2]: ابن قتيبة :الشعر والشعراء .ط3.دار الإحياء والعلوم .بيروت .1983.ص:31-32

وبقدر ما اختلفت أغراض القصيدة العربية نجد أن الشعراء قد حرصوا على تصديرها بمقدمة او أنواع من المقدمات ,حرصا منهم على الامتثال لذلك العرف وتلك التقاليد الفنية . لكن الذِّي ينبغي أن نسجله هو أن ذلك التقليد وتلك النمطية على مستوى الشكل لم تكن ساذجة ولا هي من قبيل الاجترار السلبي ,إنما هي نمطية واعية .

بمعنى أن ورود تلك المقدمات في القصيدة على اختلاف مناسباتها وموضوعاتها لم يكن بنفس الروح وذات المضامين والمعاني ,إنما كان الشاعر العربي يكيفها وفق ما يخدم نواة القصيدة أو موضوعها المحوري الذي من أجله نظمت .يقول سعيد الأيوبي في هذا الصدد :" والشاعر فوق كل ذلك ...يعطي حديث الافتتاح وما يعقبه من الموضوعات السابقة عن المدح أو الفخر أو الهجاء أبعادا ويكثف فيها من المعاني

ما يتلاءم ويتوافق مع موضوعه لذلك نجد الشعراء وإن اتحدت في أغلب الأحيان مقدمات القصائد عندهم إلا أنهم يعمدون داخل هذه القوالب الفنية المتوارثة إلى خلق مناطق ومواطن يكثفون فيها من المعاني والدلالات التي تشي بغرض القصيدة وبمعناها العام "[1].

فليس من المعقول أن تتكرر تلك المقدمات على مستوى المضمون ,وإنما يكون تكرارها على مستوى الشكل وفاء للتقاليد الموروثة التي سطرها ذلك الجيل الأول من شعراء العرب في الجاهلية .

والقارئ لنص ابن قتيبة يدرك من خلال الملاحظة المباشرة أنه لا يكتفي بالتقنين لهيكل القصيدة ,بل يفرض إلزاما على الشعراء بأن يسلكوا ذلك النهج لقوله :"وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج على مذهب المتقدمين في هذه الأقسام "[2].

ويصبح بعد ذلك أن الشاعر الذي يخرج عن هذا النهج يحَكَّم عليه بالتقصير ,أو أن الذوق النقدي لا يستصيغ شعره بل يستهجنه .

ومنذ عصر ابن قتيبة مارس النقد العربي سلطته على الشعراء الذين امتثلوا لذلك الإلزام على اختلاف بيئاتهم وأزمنتهم سواء في المشرق أو المغرب .

وقد تأكد لنا هذا الحكم من خلال هيكل قصيدة المديح النبوي لدى شعراء البلاط الزياني ,حيث خضعت في بنائها لنهج القصيدة العربية القديمة , وذلك بأن يصدروا لها

---

[1] سعيد الأيوبي :عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي .مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرباط ، ص:199 .

[2] ابن قتيبة :الشعر والشعراء ،ص:32.

بمقدمة أو بأنواع من المقدمات المعروفة في تراثنا الشعري القديم لاسيما تلك المقدمات الواسعة الانتشار كالطلل والنسيب والرحلة بالإضافة إلى مقدمة الشباب والشيب ,والتغزل بالبقاع المقدسة والتطلع لزيارتها .وهذا ما سنتبينه من خلال الحديث عن مضامين المدحة النبوية داخل البلاط الزياني ونبدأ ذلك بأنواع المقدمات .

أ-المقدمة الطللية :

تعد المقدمة الطللية ظاهرة فنية كثيرا ما استهوت قلوب الشعراء قديما .وكانت بالنسبة لهم قالبا فنيا

استوعب كثيرا من ذواتهم و نفسياتهم ومواقفهم .وإذا كان شعراء الطليعة الأولى من العرب أمثال امرئ القيس ومن عاصروه قد أرسوا هذا المقوم الفني ضمن بناء القصيدة العربية القديمة ,فإن من تلاهم من الشعراء قد عانق هذا المقوم و سار على هذا التقليد ,لكنه في تقديري لم يكن تقليدا كليا من حيث البناء والروح .

فنحن فعلا نقف عند تشابه واضح وصورة للطلل تتكرر بين شاعر وآخر , بل وداخل مجموعة من القصائد لشاعر واحد . لكنها في عمقها ومضمونها وروحها تتباين لأن الأمر بعد ذلك يتعلق بما ينفخ فيها من روحه أو بالأحرى تجربته الشعورية. والأكثر من ذلك أن يشبع المقدمة الطللية بمعان هي من جنس الموضوع الأساسي في القصيدة ,وتحقق معه قواسم مشتركة كثيرة .

ولم يقف هذا التقليد عند حدود العصر الجاهلي ولا الإسلامي وما تلاه من العصور , إنما ظل لهذه المقدمة حضورها إلى يومنا هذا .

ولما كان المغرب ولا سيما في عصوره الأولى التي تلت الفتح الإسلامي يتتلمذ عن المشارقة و يقف و أثارهم ويسلك مناهجهم في شتى العلوم والآداب ,فإن بناء القصيدة كان من بين تلك المظاهر التي ورثها شعر المغرب عن شعر المشرق .ومن هنا انحدرت الظاهرة الطللية إلى شعر المغاربة وشكلت لدى المحافظين منهم أساسا فنيا في مختلف الأغراض الشعرية والتي من بينها قصيدة المديح النبوي .وللتدليل على ما نذهب إليه نتخذ من قصيدة ابن خلدون النونية نموذجا حيث يقول في مقدمتها :[1]

سَقَى الدَّارَبِالجَرْعَاءِ مِنْ جَانِبِ الشِّعَبِ سَحَائِبُ دَمْعِي إِنْ وَنَتْ أَدْمُعُ السُّحْبِ

---

[1] أبو زكريا يحي بن خلدون :بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج2.تحقيق:عبد الحميد حاجيات،ج2،المكتبة الوطنية ،الجزائر ،1980 ، ص:230

وَرَوْضَ ماَ بَيْنَ العَقِيقِ إلى النَّــقىَ وَ حَيّاَ بِذَيَّاكَ الحمىَ زَمَنَ القُــرْبِ
مَغَانِي شُمُوسٍ أَوْرُبُوعُ أَهِلـــَّةٍ طَلَعْنَ بِرَوْضٍ أَوْ بَزَغْنَ عَلىَ القُضْبِ
هُنَالِكَ أَعْطَيْتُ الهَوىَ فَضْلَ مِقْــوَدِي وجَدْتُ مُطْيعاَ بِالحَشَاشَةِ وَالقَــلْبِ
فَياَ عَجَبَا لاَ مِنْ تنَائِي مَزَارِهَـــا وَلَكِنَهُ إِنْ أَمْكَنَتْ عِيشَةُ الصَّـــبِّ
وَقَفَتُ بِأَطْلَالِ الرُّبُوعِ رَكَائِبِـــي بِلأيٍ عَرِفْتُ الدَّارَعَافِيَةَ التــُرْبِ

يدعو الشاعر بالسقيا –على عادة الشعراء القدامى –لديار الحبيب ,على أن تسقى هذه الديار بدموعه إن أمسكت السماء عن المطر .ثم يواصل الدعاء بأن تزهر مواطن الحبيب وتنبعث فيها الحياة من جديد ،وكأنه يريد بذلك إعادة ماضيه السعيد الزاهر .يتضح هذا بجلاء في الشطرة الثانية من البيت الثاني حينما يرسل التحية لتلك البقاع مستعيدا زمن القرب في قالب التمني . ليسترسل الشاعر بعد ذلك في إضفاء مظاهر الحسن على مواطن الحبيب مستعينا في وصفه باستعارة عناصر الطبيعة التي تضفي جانبا جماليا على المكان . ثم يكشف عن سر تعلقه بتلك المواضع ,وسبب حرصه على الدعاء لها وإظهارها في صورة مشرقة جميلة وهو أنها كانت تضم ديار الحبيب وتحفظ له ذكرياته السعيدة .

ويطلعنا الشاعر عن سبب تأخره عن زيارة هذه البقاع , حيث لا يرجعه إلى البعد وامتداد المسافة ,إنما لظروف أخرى أعاقته عن الحلول بها ,إلى أن كانت له الفرصة لزيارتها بعد زمن طويل حيث أوقف ركائبه على معالم الديار التي لم يتعرف عليها إلا بعد جهد وعناء ,وطول تمعن في المكان .وذلك ما يوحي بطول غيابه عنها بدليل وجود القرينة (لأي) التي تكشف عن فعل الزمن في تغييب معالم الديار ،تضاف إليها أيضا كلمة (عافية) التي تحيل على صور باهتة غير واضحة المعالم .

ولا يبتعد أبو حمو موسى عن هذا المضمون ,حيث يقول :[1]

قِفاَ بَيْنِ أَرْجَاءِ القِبَابِ وَبِالحَيِّ وَحيَّ دِيَاراً لِلْحَبِيبِ بِهَا حيُّ
وَعَرَّجْ عَلى نَجْدٍ وَسَلْعٍ وَرَامَةَ وَسَائِلْ فَدَتْكَ النَفْسُ فِي الحَيَّ عَنْ مَيَّ
وَقُلْ ذَلِكَ المَضْنِيُّ المُعَذّبُ بِالهَوَى يمُوتُ وَيَحْيَ فَأَرْثِ لِلْمَيّتِ الحَيَّ
وَبُثَّ لَهُمْ وَجدِي وَفَرْطَ صِبَابَتِي وَأَرْوِ حَدِيثِي فَهْوَ أَغْرَبُ مَرْوِيَّ
يَعذّ بُنِي شوقِي وَيُضْعِفُنِي الهَوَى وَقَدْ صَبَغْتُ فِي حُبِّهِمْ لَوْنَ عُودِي

---

[1] الجزائر :عبد الحميد حاجيات :أبو حمو موسى حياته وأثاره،ط2،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ،1982،ص:345-

لَبِسْتُ ثِيَابَ السُّقْمِ فِي دَرَجَةِ الهَوَى وَقَدْ صَبَغْتُ فِي حُبِّهِمُ لَوْنَ عُودِي
تَحَلَيْتُ فِي أَهْلِ الهَوَى بِهَوَاهُمُ فَمَالِي سِوَى زَيَّ المَحَبَّةِ مِنْ زَيّ

فقد استوقفت الشاعر ديار الحبيب فوقف بها وقفة العاشق المحزون الذي خلف أيام حبه وسعادته ودفن بين رمالها قلبه والذي له في كل موضع منها ذكرى تؤرقه وتثيرفي فؤاده الأسى ,وتذهب نفسه حسرات عليها فيطلب إلى صاحبه الوقوف بها ، ويسائل الربع عن حبيبته فيستبد به الشوق والحنين حتى ليكاد يعصف به

يبدو جليا في هذه المقدمة التأثر بالشعراء القدامى وتحديدا بامرئ القيس,حيث لا يجد القارئ كبير عناء في الوقوف عند هذا التقاطع بين مطلع هذا الأخير ومطلع أبي حمو ,حيث يقول امرؤ القيس في معلقته [1]:

قِفَاَ نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وإذا كان هذا المظهر يؤكد وفاء الشاعر لتقاليد القصيدة العربية القديمة ومعانقته لذلك التراث ,فإنه تقليد على مستوى الشكل فحسب ,لأن الطلل هنا غير الطلل هناك , الحبيب غير الحبيب ,فالحبيب عند أبي حمو كما هو واضح من خلال القرينة القباب يتجسد في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم لأنها ترمز إلى المساجد .ثم إن ديار الحبيب التي استوقفته قد حددها في مواضع تعد من متعلقات هذه الشخصية من ذلك :

الحي وقد يريد به مكة :ونجد ,وسلع ,و رامة .

ومن هنا تغدو الطللية وعاء فحسب يصب فيه الشاعر من مشاعر ه ورؤاه ما يخلق انسجاما وارتباطا وثيقا .

بموضوع القصيدة ,وهذا ما أكده أحد الدارسين بقوله :"إن الشاعر المبدع هو الذي يعطي حديث الطلل أو صورة النسيب في المقدمات دفقات شعورية يحدد من خلالها موضوع القصيدة الرئيس ,ويستخدم الأصباغ والألوان حسب المعني الذي يريد أن يرسمه "[2].

ب-المقدمة الغزلية :

---

[1]: امرؤ القيس : الديوان ،دار بيروت للطباعة والنشر ،1972،ص:29.

[2]: سعيد الأيوبي :عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي ،ص:289

تعد من المقدمات التي صدر بها شعراء الدولة الزيانية مدائحهم النبوية ,حيث استعرضوا فيها ما ينتابهم من مشاعر إزاء الحبيبة وما يعانونه من تباريح الشوق , وعذاب الهجر ,وحينما تستبد بهم الفرقة ويراودهم اليأس , يفسحون مجالا من الأمل عن طريق التوسل بالحبيبة والتماس الرحمة منها . يقول ابن رشيق :"
وللشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه عطف القلوب واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل ,والميل إلى اللهو والنساء "[1].

وهو تأكيد على أهمية التقديم للقصيدة بمقطع النسيب ,وإن كان ابن رشيق قد اتخذ ذلك من منطلق وظيفي لما يحقق من أثر في المتلقى (لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول) وإذا كان للشاعر أن يراعي ذوق المتلقي فإنه بالموازاة لابد أن يرضي تجربته الشعورية ,لأنه من غير الممكن أن يتجرد هذا المقطع من ذاتية الشاعر. وهو يوظف فيه من المعاني ما يوافق أيضا طبيعة الموضوع الذي سيخلص إليه .

و قد التفت شعراء البلاط الزياني إلى عناصر الكون ووظفوها في غزلياتهم مثل استخدامهم للبرق كمثير يحرك كوامن النفس ويهز مشاعرها ,وكأنما هذا البرق حامل رسالة من الحبيبة إلى الشاعر تنقل في طياتها أخبارها وسلامها ,وربما هذا ما يجعل الشاعر أحيانا يحمل بدوره هذا البرق رسالة للحبيبة .وهذه الأداة –البرق -وسيلة متوارثة ,فكثيرا ما وظفها شعراء العرب القدامى .ومن أكثر المقدمات الغزلية تجاوبا مع هذه المعاني تلك التي وردت في قصيدة محمد بن يوسف القيسي الثغري .يقول فيها :

لَوْ لاَ هَوَى ذَاتِ الجِنَابِ السَّامِي مَا شِمْتُ ثَغْرَ البَارِقِ البَسَّـامِ
برقٌ يُعَارِضُـهُ الفؤَادُ إِذَا بَدَا مَا بَيْنَ خَفْقٍ دَائِمٍ وَضِـرَامِ
فَوَمِيضُهُ يُذْكِي الجَوَى بِجَوَانِحِي مَهْمَا تأَلَّق فِي مُتُونِ غَمَـامِ
وافَى بِخَيْرٍ عَنْ رُبُوعِ أَحِبَّتِي خَيرِ الحَديثِ العَهْدِ بِالإلـمَا مِ
يَا بَرقُ صِفْ حَالَ المشَوقِ إِلَيْهِ وأَرْوِي حَدِيثَ صَبَابَتِي وَغَرَامِي
قَسَمًّا بِهِمْ وَمَحَبتَّي لِجِنَابِهِـمُ وَبِمَا لَهَا مِنْ حُرْمَةٍ وَذِمَـامِ
مَا إِنْ سَلَوَتُ هوَاهُـمُ بِسِوَاهُمُ يَوْمًا وَلَا أَصْغَيْتُ لِلـوَّ امِ
فِي كُلِّ جَارِحَةٍ غَرَامُ كَامِـنُ لَمْ يَبْقَ فِيهَ مَوْضِعُ لِلْمَلَامِ
فَالقَلْبُ مِنْ فَرْطِ المَحَبَةِ هَائِـمُ وَالجَفْنُ مِنْ بعْدِ الأَحِبَّةِ هَامِ

---

[1] ابن رشيق القيرواني :العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،ص:255

مَا ضَرَّهُمْ وَهُمْ بُدُورُ تَمَـــامِ لَوْ قَصَّرُوا بالطَّيْفِ قَبْلَ تَمَامِ
أَمْ هَلْ يَزُورُ الطَّيْفُ مَضْجَعَ سَاهِرٍ مَا ذَاقَ مُذْ هجَرُوه طعمَ مَنَامِ
اهٍ لليْلِي مَا أَمَرَّسهَـــادُهُ عِنْدِي وَمَا أَحْلَى جِنَى أَحْلَامِ [1]

فالثغري يقر إقرارا يقينا بأن هيامه بهذه الحبيبة هو الذي جعله يرى في البرق حامل تحية ومقرئ سلام منها إليه , لذا فإن هذا العنصر الكوني –البرق –قد أصبح يحمل مثيرا قويا يحرك أعماق الشاعر ويلهب مشاعره ويثير أشجانه . ولما كان في اعتقاده أن هذا البرق قد لاح من جهة الحبيب فإنَّه حمله وصف حاله , وما آل إليه من قلق نفسي ,وفرط صبابة وحرقة جوى وهو في منأى عنه .

وضمن هذه الرسالة أكد له مدى صدقه في مشاعره ,وأقسم بهذا الحب الطاهر أنه لن يبدل هواها بهوى آخر ولن يصغي للومة لائم ,لأن هذا الغرام قد سكن جميع جوارحه ,وأصبح يسري في كل أعضائه حتى لم يترك مجالا لمعاتب . فالقلب وهو أهم عضو في الإنسان قد صار هائما بهذا الحب أسيرا لديه .والشاعر بذلك يلوم الحبيبة التي تسرف في تعذيبه وتمعن في الهجر ,ويدعوها لأن تتلطف وتتكرم بإرسال الطيف
لزيارته ,فهو قادر على ذلك من غير مخاطرة أو حرج ,لأنه بإمكانه أن يخترق أستار الظلام ويسري في ظلمات الليل دون أن تدركه عين الوشاة ليزور الشاعر الذي سيجد فيه بكل تأكيد بعض العزاء والتخفيف من عناء الهجر وحرقة الفراق .فهو بمثابة جسر يعبر عليه من شاطئ الحياة التعيسة المؤلمة إلى شاطئ الحب الحالم الواهم .

ويطالعنا أبو حمو حمو في إحدى مقدماته الغزلية بصورة عاشق ولهان معذب أنهكه الهجر وأتعبه الهوى.يقول:

الحَبُّ أَضْعَفَ جِسْمِي فَوْقَ مَا وَجَبَا وَالشَّوْقُ رَدَّ خَيَالِي بِالسُّقَامِ هَبَـا
وَ البَيْنُ أَشْعَلَ نَارَالوَجْدِ فِي كَبِدِي وَالدَّمْعُ يَضرمُهاَ فِي القَلْبِ وَاعَجَبَا
مَاءُ وَنَارُوَ أَكْبَادُ لَهَا شُعـــلُ وَالقَلْبُ بَيْنَهُمَا قَدْ ذَابَ وَ التَهَبَـا
ضِدَّانِ قَدْ أَجْمَعَ عَوْنَا عَلَى سَهَرِي لَكِن عَذابِي بِهَا فِي الحُبِّ قَدْ عَذبا
أُكَابِدُ اللَّيْلَ بالتَّسْهِيدِ مُفْتَـكِرا ولاَ أُبَالِي بِهِ إِنْ طَالَ أَوْ قَـرُباَ
وَ قَدْ شُغِلَتْ بِقَلْبِي كُلَّ مُشْتَغَلٍ وَقَدْ مَزَجْتُ دَمَا بِالدَّمْعِ مُنْسَكِبَا
وَكُلُّهَا لِعَذَابِي فِي الهَوىَ سَبَبُ وَلَمْ أَجِدْ لِوِصَالِي بِالنُّوىَ سَبَباَ [2]

---

[1] : أبو زكريا يحيى بن خلدون :بغية الرواد ،ج2، ص:210

[2] عبد الحميد حاجيات :أبو حمو موسى الزياني .حياته وآثاره ،ص:371

ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

من خلال هذه المقدمة الغزلية نجد أنفسنا أمام عاشق معذب أوهن جسمه الهوى وأصابه الضعف والسقام لشدة شوقه .

ويعبر الشاعر عن لحظة من لحظات الحب التي كثيرا ما أذهلت العشاق ألا وهي لحظة الوداع,فأمام هذه الفاجعة لا يجد مناصا من البحث عن وسيلة للإفلات منها, إما بالهروب إلى عالم الأحلام أو الاستسلام للواقع . إنها صورة من وحي البعد وتعذر المزار ومن أجل ذلك يذرف الدموع تعبيرا عما أصابه من شدة الوجد ,ويتخذها وسيلة للتعبير عن حرقته .إنه يعيش حالة من الثنائية المتضادة ,ثنائية اليأس والرجاء التي غالبا ما تنغص على العشاق لياليهم بالسهد والتفكير والأحزان ,والبناء والهدم .فالصراع الداخلي كما يصوره الشاعر يحتدم على أرضية فكره.ودليل ذلك تلك الصورة التي استخدم فيها ثنائية ضدية أقامها بين (الوصال والنوى) التي عبرت عن العذاب والضنى الذي كان يعانيه من أجل الوصول إلى محبوبته .

ويقول في مطلع مدحة أخرى بعنوان :(مشوق تزيا بالغرام):[1]

مُشَوقُ تَزيًّا بِالغَرَامِ وِشَاحــا ۔ مَتَى مَا جَرى ۔ذِكْرُالأَحِبَةِ صَاحَا
تُعَذِبُهُ أَشجَانُهُ وَهُوَ صَابِــرُ وَيُبْدِي اشْتِيَاقاَ زَفْرَةُ وَنَوَاحَــا
محبُّ مُشَوّقُ قَيَدَتْهُ يَدُ الـهَوَى أَسِيرُلَدَيْكُمْ لَا يُرِيدُ سَرَاحَــا
عَذَابِي صَلَاحُ فِي رِضاَكُمْ فَإِنَّكم رَأَيْتُمْ صُدُودِي فِي الغرَامِ صَلَاحَا
رَمَيْتُمْ بِأَكْبَادِي سِهَامَ نَوَاكُـمُ وَأَوْدَعَتُمْ قَلْبِي أَسَىَ وَجِرَاَحَـا
تَقَطَّعَ مَا بَيْنَ الحَشَا وَبِمُقْلَتِـي دُمُوعُ جَرَتْ فَوْقَ الخُدُودِ سِفَاحَا
رَكِبْتُ لَكُمْ مَرْكَبَ الشَّوْقِ رَائضَا كَمَا قَدْ رَكِبْتُمْ للصُّدُودِ جِمَاحــاَ

في هذا الجو المحفوف بالسعادة والسكينة صور أبو حمو موسى أحلى أيام حبه مع محبوبته وقد جعلنا نعيش وإياه مغامرة وصال وصدود ,مصورا لنا ما لحقه بسببها من وجد وعذاب .فنراه لا يملك إلا أن يصرح بما يكتنفه من أحاسيس , فهو لا يطيق أثر الفراق ولا يقوى على تحمل تباريح الهوى .

فالملاحظ على هذه المقدمات الغزلية التي وقفنا عندها أن الشاعر المحب يظهر دائما في صورة الحبيب الولهان المغلوب على أمره وهي الصورة التي ورثناها عن غزلنا , حيث يبدو فيها المحب (الرجل) مهزوما أمام الحبيبة .وعلى قدر ما يُظْهِرُ لها من وجوه الحب

---

[1] المرجع نفسه :ص:352

وصور الوفاء واللهفة إلى اللقاء , تقف له موقف النقيض فَتُصِرُ على الهجر وتمعن في الإبعاد , وتتمنع عنه إلى درجة القهر والاستعباد .فهو والحال كذلك يستحق الشفقة والعطف .

ج- الرحلة إلى البقاع المقدسة وذكر الشوق إليها :

وتُعَّدُ من المقدمات التي كثيرا ما صدَّر بها الشعراء مدائحهم النبوية ,وتتضمن –عادة – إعلان الرحلة إلى الديار الحجازية وكيف أنهم قطعوا المسافات الطويلة إلى أن حلوا بتلك الديار وطافوا بالأماكن المقدسة ,و أشفوا ما بصدورهم من حرقة الشوق إليها وإلى الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم).وغالبا ما يصور الشاعر حرقته وأساه إذا تخلف عن ذلك الركب وقعد عن زيارة تلك البقاع ,حتى أنه يقيم أحيانا مقارنة بين حاله وحال هؤلاء , فيكون ذلك سببا في تعميق ندمه وقلقه النفسي ,إذ يراهم وقد فازوا بالتوبة وتطهير النفس من الذنوب , في حين يظل هو يتجرع مرارة الخيبة ,وألم الخطيئة ,وتراكم الذنوب .

ومثل هذه المعاني نجدها في إحدى مدائح أبي حمو الزياني وقد استهلها بمقدمة الشباب والشيب , تلاها بمحاسبة النفس وعتابها , لينتهي إلى مقدمة الركب المتجه إلى موطن الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول:[1]

حَّطَ العُشَاقُ رَكَائِبَهُــمْ بَيْنَ العَلَمَيْنِ وَبِالحَــرَمِ
وَصَرُوفُ الدَّهرِ تُعَارِضُنِي فَمَا أَبْغِيهِ مِنَ القَسَــمِ
سَارُوُا وَذُنُوبِي تُقْعِدُنِـي فَقَرَعْتُ السِّنُّ مِنَ النَّـدَمِ
وَبَكَيْتُ الدَّمْعَ عَلى ِزَلَلِي وَمَزَجْتُ الدَّمْعَ بِفَيْضِ دَمِ
قَلْبِي اِنْفَطَرَوَ الدَّمْعُ جَرَى وَ الرَّكْبُ سَرَى نَحْوَ الخِيَمِ

فقد أعلن من خلال هذه الأبيات وصول الركب وأنه حط الرحال بتلك البقاع ,في حين تخلف الشاعر عن هذه الرحلة وظل حبيس ظروفه القاهرة التي كانت دوما عائقا أمامه .وذلك ما أثار في نفسه كوامن الحزن وأسال دمعه .ثم يعلن أن ذلك ما أشعل نار الشوق في صدره حنينا لتلك المعالم التي طالما تمنى رؤيتها .ولشدة تعلقه بها وتطلعه إليها ,يصرح بأنه رحل روحيا مع ذلك الركب ولم يبق بتلمسان سوى جسده السقيم .يقول في هذا :[2]

---

[1] : أبو زكريا يحى بن خلدون :بغية الرواد .ج2.ص:42

[2] : المصدر السابق ،ص:43

قَلْبِي بِهَوَاهُ أَسِيرُهَـوَاهُ فَيَا شَوْقَاهُ إلى العَــلَمِ
سَرَتِ الإبلُ لَمَّا ارْتَحَلُوا قَلْبِي حَمَلُوا فِي رَكْبِهِــمُ
حَمَلُوا خُلْدِي أَفْنَوْا جِلْدِي تَرَكُوا جَسَدِي رَهْنَ السّـقَمِ

ثم يصف حال الحجيج وقد علت وجوههم الأنوار بعد أن تخلصوا من ذنوبهم ونالوا الأجر والثواب إثر قيامهم بمناسك الحج ,في حين يقدم لنا صورة كئيبة منكسرة شاحبة لشخصيه وقد عجز عن تحقيق ما أصابوه .يقول :[1]

بَدَتِ الأَنْوَارُعَلَى الزُّوَارِ مِنَ الأَقْمَارِبِذِي سَلِــمِ
زَارُوا الهَادِي بِهَوَى بَادٍ وَحَدَا الحـادِي عَزْمَا بِهِـمُ
شَدُّوا عَزَمُوا فَازُوا غَنَمُوا لَمَّا قَدِمُوا لِحِمَى الحــرَمِ
طَافُوُا بِالبَيْتِ وَقَدْ وَقَفُوا وَدَعُوا إِذْ ذَاكَ لِرَبِّـــهِمُ
غُفِرَتْ بِالبَيْتِ ذُنُوبُهُمُ عِنْدَ الإِقْرَارِبِذَنْبِهِــمُ
وَغَداَ المُشْتَاُقُ بِزَفْرَتِهِ فِي مَغْرِبِهِ يَبْكِي بِـــدَمِ
جِسْمِي بِتِلِمْسَانَ دَنِفُ وَالقَلْبُ رَهِينُ الحَــرَامِ

ويحاول أبو حمو بعد ذلك أن يلتمس لنفسه الأعذار والمبررات التي منعته من الزيارة ,فيلخصها في أعباء الحكم وثقل المسؤولية :[2]

قَدْ قَيَّدَنِي مَا قَلَّدَنِي مِنْ أَمْرٍحَكِيمٍ ذِي حِكَمِ

ثم في مسؤوليته أمام الرعية والحرص على مصالحها :[3]

وَلأَنِّي أَمْرُالخَلْقِ فَلَمْ أَسْتَطِعْ سَيْرَا مِنْ أَجْلِهِمُ

وكذا في انشغاله بإخماد نار الفتنة في الداخل والخارج :

فأقمت أصلح ما خرقت بالغرب يد الفتن الدهم

ومن الشعراء من قصر حديثه في هذه المقدمة عن الركب المرتحل إلى موطن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ووصف رحلته ورحائِله ,وكيف أنه تكبد المشاق وهو يقطع الفلوات ,لاسيما حينما يطبق الليل بظلامه على البسيطة ,لأن ذلك ما يخلق مصاعب في المسير حين تغدو معالم الطريقة غير واضحة وتصبح المسالك صعبة لما تحتويها من

[1] المصدر نفسه،ص:43
[2] المصدر نفسه ،ص:43
[3] المصدر نفسه ،ص:43

حجارة و التواءات وأشواك وما إليها مما يعترض الراحلة ويعرقل المسير ويسبب المتاعب
.

يقول في هذا المضمون الشاعر محمد بن يوسف القيسي الثغري :[1]

تَذَكَّرْتُ صَحْبًا يَمَّمُوا الضَّالَّ و السَّدرَا   فَهَاجَتْ لِي الذِّكْرَى هَوَى سَكَنَ الصَّدْرَا
وَإِخْوَانَ صِدْقٍ أَعْمَلُوا السَّيْرَ و السُّرى   إِذَا مَا بَدا عُذرُلَهُمْ قَطَعُوا العُـذْرَا
سَروْا فِي الدُّجَى يَفلُونَ نَاصِيَةَ الفَلَا   وَعِنْدَ صَبَاحِ القَوْمِ قَدْ حَمِدُوا المَسْرَى
غَدَتْ نَكِرَاتُ البَيِنِ مَعْرِفَةُ بِـهم   وَ اَهِلَةُ تِلْكَ المَجَاهِلُ لَا قَفْــرَا
وَ تَوْدِيعُهُمُ أَذْكَى الجَوَى بِجَوَ انِحِي   لَقَدْ أَوْدَعَ التَّوْدِيعُ فِي كَبِدِي جَمْـرَا
يُضِيُء الدُّجَى مِنْ عَزْمِهِمْ فَكَأَنَهُمُ   كَوَاكِبُ تَسْرِي لِلْحِمَى كَيْ تَرَى البَدْرَا

فالشاعر يفترض أن صحبا له قد عقدوا النية ونفذوا العزم لزيارة مواطن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمنعهم في ذلك مانع لأنهم تخلصوا من كل الأعذار وتجاوزوا كل العراقيل .وقد كانت انطلاقتهم ليلا وليس هذا التوقيت إلا جانبا من جوانب التقليد لما ورد في مقدمات الرحلة ضمن القصيدة العربية القديمة , فهو سعي من الشاعر إلى تعميق المعاناة ومشقة السفر عله يظفر بعد ذلك بالجزاء الحسن والمكافأة التي يتطلع إليها .

ولم يخرج الثغري عن هذا السياق حينما اختار الليل موعدا لهذه الرحلة , فهو يريد لها أن تكون رحلة ميمونة تعود على صحبه بالثواب والمغفرة تقديرا لما تحَمَّلوه من عناء السفر وتعب المسير الذي تزداد عثراته وتتعدد أخطاره ليلا .

ولم يكن من السهل على الشاعر أن يتحمل ذلك الموقف الصعب وهو يودّع هؤلاء المرتحلين لأجل هذه الغاية المقدسة , وإنما كان يعيش لحظات حرجة قلقة , يعاني فيها حرقة الجوى و حر الشوق لزيارة البقاع المقدسة والفوز بأجر تلك الزيارة .ثم يتلو ذلك بوصف هؤلاء الحجيج وقد بدوا له في سعيهم النبيل وكأنالنور ينبعث منهم فيبدد ظلمة الليل , بل صار الليل يستمد منهم الضوء , وكأنهم بذلك - في نظر الشاعر- كواكب تسري مسرعة لتفوز برؤية البدر الذي هو الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

[1]محمد بن عبد الله التنسي :تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، مقتطف من ناظم الذر والعقيان في شرف بين الزيان ،تحقيق :محمود بوعياد ،المكتبة
الوطنية ،الجزائر ،1985،ص:212

وقد تعددت نبرات الشوق إلى رؤية الحمى وترابه المقدس كمكة وطيبة حتى جعلت بعضهم يكتفي بتوجيه أشواقه محملة بأصدق عاطفة مع ركب ميمون كما يقول الشاعر أبو زكريا يحيى بن خلدون في إحدى مدائحه: [1]

أَلا أيُّهَا الرَّكَبُ المُخِبُّونَ بِالضُّحَى عَسَى لَكَ مِنْ أَرْضِ الحِجَازِ ظُعُونُ
أَعِيدُوا أَحَادِيثَ العُذَيبِ وَأَهْلِهِ فَلَي بِأحَادِيثِ العُذَيبِ فتـونُ
أَمِنْ طِيبَةُ يَا قَوْمُ نَوْرُ رِكَابِكـم فَعَنْ طِيبِهاَ هَذَا العَبِيرِ يُبِيـنُ
وَمَا طَيْبَةَ حُسْنَا إِذَا مَا اعْتَبَرْتُهَا وَسُكَّانُهَا إِلَا الجِنَانُ وَعَيـنُ
مَحَطُّ رِكَابِ الوَحْيِ مُنْتَجَعُ الهُدَى مَسَاحِبُ ذَيْلِ الرُّشْدِ حَيْث يَكُونُ
مَوَاطِئُ خَيْرِ الخَلْقِ آثار نَعْلِـهِ وَمَثْوَاهُ حَيًّا وَهْوَثَمَّ دَفِيـنُ

إن بعد المسافة التي تفصل بين الشفيع والراجي شفاعته جعلته يستطرد في الحديث عن شوقه المتأجج

لرؤية البقاع والديار المقدسة . فبعد أن اشتعلت نار الجوى في فؤاده واشتد حنينه للقاء الحبيب ,لم يجد سوى هذا الركب يحمله أشواقه , يَحدُوه في ذلك إشباع رغبته الجامحة في إطفاء لهيب الحنين ,إذ يرى الشاعر في تلك الديار مواطن مقدسة , فقد كانت مبعث الوحي ,ونواة الهدى والرشد . ومما زادها شرفا كونها موطن خير الأنام المصطفى صلى الله عليه وسلم .

د- مقدمة الشباب والشيب :

قدم شعراء الدولة الزيانية في مدائحهم النبوية أيضا بمقدمة الشباب والشيب , حيث تحدثوا عن نذير الشيب حينما يعلو الرأس ,وكأنه يدق ناقوس الخطر بدنوّ الأجل , وهو الباعث الذي يحملهم على الارتداد إلى المرحلة المنقضية من حياتهم , لاسيما مرحلة الشباب ,وذلك قصد مراجعة النفس .

وحينها يجدون فرصة لتعداد تلك الخطايا ,وإظهار الندم على ما اقترفوه , بل إنهم أحيانا يعنفون النفس، ويجرعونها مرارة الندم كما أنهم يجدون في تلك المراجعة مجالا للاعتبار والعظة , وفضاء للتأمل في أحوال الدنيا مع التركيز على جانب الإغراء فيها , وكيف أنها تستدرج الإنسان إلى الإقبال عليها والارتماء في أحضان أجوائها اللاهية.

[1] أبو زكريا يحي ابن خلدون :بغية الرواد .ج2:ص:216

وطبيعي أن يخلص الشاعر بعد ذلك إلى تقديم النصيحة بضرورة التزود بخير زاد ليوم الحساب . وقد ترددت هذه المعاني في كثير من المدائح النبوية , ومن ذلك ما نقرأه في مقدمة قصيدة الثغري التي يقول فيها :

أُقْصِرُ فَإِنَّ نَذِيرَ الشَّيْبِ وَ افَانِي وَ أَنْكَرَتْنِي الغَوَ انِي بَعْدَ عِرْفَانِ
وَقَدْ تَمَادَيْتُ فِي غَيّ بِلَا رُشْدٍ وَالنَفْسُ تَأْمُرُنِي وَالشَّيْبُ يَنْهَانِي [1]
فَقُلْتُ لِلنَفْسِ إِذْ طَالَتْ بِطَالَتُهَا مَهْلاَ أَلَمْ يَانِ أَنْ تَخْشَى أَلَـمَ يَا نِ
كَمْ خُطَا فِي الخَطَايَا قَدْ خَطَوْتِ وَلَمْ تُرَ اقِبِ اللهَ فِي سِرّوَإِعْلا نِ
فَلَا تَغُرَنَّكَ الدُّنْيَا بِزُخْرُفِهَا فَيَا نَدَامَةَ مَنْ يَغْتَرّ بِالفَانِي
فَلَيسَ فِيهَا وِصَالُ دُونَ هِجْرَانٍ وَلَيسَ فِيهَا كَمَالُ دُونَ نُقْصَانٍ
وَاسْلُكْ سَبِيلاً إِلَى التَّقْوَى لتقوى بِهَا عَلَى السُّلُوكِ إِلَى جَنَّاتِ رِضْوَانٍ[2]

افتتح الثغري قصيدته بإعلان خبر المشيب بعد أن غزا رأسه وانصرفت عنه الغواني وانفضضن من حوله . ثم يسترسل في محاسبة النفس وإلقاء اللوم عليها , فكم قادته من قَبْلُ في طرق الضلالة زمن الشباب وألقت به في دائرة الخطيئة .وحتى حين حلّ المشيب ظلت تدفع بالشاعر إلى سُبُلِ الغَي رغم ما يصدره الشيب من نواه وما يلوّح به إلى دنو الأَجل ,وبالتالي ضرورة تدارك الخطأ ومحاولة التزود بخير زاد لملاقاة الخالق .

والبيت الثاني يكشف عن صراع حاد وثورة نفسية يعيشها الثغري تغذيها هذه الثنائية الضدية بين أوامر النفس ونواهي المشيب . لكن يبدو أنه يستجيب في النهاية لنواهي المشيب من خلال زجره للنفس التي تمادت في ضلالها بعد تذكيرها بجملة الخطايا التي اقترفتها من قبل , لِيُبْدِي لها بعد ذلك النصيحة في أسلوب وعظي لا يخلو من حكمة , على نحو ما نقرأ في البيت الخامس (فيا ندامة من يغتر بالفاني) .

وقد يسلك الشاعر في هذه المقدمة مسلكا آخر ,حيث يبدأ بإرسال تمنيات يائسة ينشد فيها عودة الماضي الذي انقضى ليعلن بعد ذلك حلول الشيب في الرأس,وهو موقف يبعث في نفسه الحزن والأسى والحسرة ,الحزن على الحال الذي آل إليه والعجز الذي أصبح يعيشه ,والحسرة على الأيام التي وَّلت دون رجعة ،ومن هنا يجد له مطية يرجع من خلالها إلى أيام الشباب ,يحمله على بكاء الشباب ,ولكنه ليس بكاء على انقضاء اللذات ,إنما هو بكاء على زوال تلك المرحلة من العمر دون أن يستغلها في الإعداد للآخرة .

---

[1] المصدر نفسه ،ص:226-227 .

[2] المصدر نفسه ،ص:47

ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

يَقول أبو جمعة التلاليسي في هذا الصدد:

تُرى هَلْ يُرَدُّ الصَّبَا بِالوَسَائِلِ فَدَمْعِي مُذْ بَانَ هَامٍ وَسَائِلْ
وَهلْ لِزَمَانٍ مَضَى رجْعة كَعَهْدِي بِهِ أَتُرى الدَّهْرُفَاعِلْ[1]

إنَّه تساؤل يائس يرسله الشاعر عبرهذين البيتين لأنه يعلم علم اليقين أنه لا رجعة لذلك الزمن الذي وَّلى وانتهى . ونحن وإن كنا نقرأ في هذين البيتين جانبا من التمني إلا أنه يظل أمل اليائس الذي يسيطر عليه الضياع والسقوط , فيحاول الإمساك بأية وسيلة للنجاة مهما كانت هشاشتها .ويصبح المعنى الحقيقي الذي أراد أن يوصله الشاعر هو إظهار اللهفة والتطلع إلى أيام الشباب والحرقة على زوالها . ومما يعمق هذا الإحساس ظهور علامات الشيب التي تؤذن بمفارقة السلوّ واللذات وتنذر بدنو الأجل .يقول :[2]

بَدَا الشَّيْبُ فِي مِفْرَقِي قَادِمًا فَقَالَ السُّلوُّ أَنَا عَنْكَ رَاحِلْ

وهنا تبدأ مأساة الشاعر الحقيقية , لا لأنه ودع مرحلة مَرِحَةً من حياته , بل لأنه أمضى شبابه في تتبع اللذات والمضي في طرق الغواية .وفي هذا يصرح قائلا :[3]

فَهَا أَنَا أَبْكِي لِفَقْدِ الشَّبَـابِ وَعَصْرِ التَّصَابِي بُكَاءَ الثَّواكِـلْ
وَلَيْسَ البُكَاءُ عَلَى فَقْـدِهِ وَلَكِنْ لِتَضييعِ عُمْرِي بَاطِـلْ
مَضَى ضَائِعًا فِي عَسَى وَلَعَلَّ وَحَتَّى وَسَوْفَ اعْتِذَارِ المُمَاطِـلِ
أُطَاوِعُ نَفْسِي فِي غَيِهـَا وَأُمْسِي عَنِ الرُّشْدِ لَاهٍ وَغَافِـلْ

ثم يوجه ما هو من قبيل اللوم والتوبيخ والتعنيف للنفس التي تمادت في غيها:[4]

فَيَا وَيْحَ نَفَسِي كَمْ ذَا تُـرَى تُطِيعُ الغُوَاةِ وَتَعْصِي العَوَاذِلْ
وَ كَمْ ذَا اغْتِرَارُبِطُولِ البَقَاء وَلَمْ يَتَبَقَ مِنْ العُـمْرِ طَائِلْ
فَمَنْ مُنْصِفِي أَوْلِمَنْ أَشْتَكِي وَدَهْرِي غَدَ ا لِي حَرْبًا مُقَاتِلْ
وَهَلْ مِنْ دَوَاءٍ وَهَلْ مِن شِفَاءٍ وَلَسْتُ لِشَيْء مِنَ النُّصحِ قَابِلْ

إنها صرخة شديدة في مواجهة النفس التي أوقعت الشاعر في كل هذه الخطايا , تعكسها كلمة (يا ويح) بكل ما تحمله من مرارة العتاب و قساوة التوبيخ ,وسوء العاقبة .وتُعَمِّقُ هذا المعنى أكثر كلمة (كم) التي تتصدر البيت الثاني ,وهي كم الخبرية التي تفيد

[1] :المصدر نفسه ،ص:47
[2] :المصدر نفسه ،ص:47
[3] :المصدر نفسه ،ص:47
[4] :المصدر السابق ،ص:72

كثرة العدد والتي وظفت هنا للدلالة على حجم المصيبة والمأساة ،أو فلنقل حجم اللامبالاة والغرور .

إن واقع الشاعر مترد , وماضيه مثقل بالمعاصي , وهذا ما حمله في البيت الرابع على تكرار (هل) الاستفهامية التي تؤدي معنى الإنكار . وإذا كان التكرار كما نعرفه له دوره من حيث المعنى ذلك أنه يحقق العمق والتأكيد على فكرة معينة , فإن ما يؤكده الشاعر هنا ألا سبيل له إلى النجاة .لكنه يفيق بعد ذلك من تأثير الصدمة ليعيد إلى يقينه بأن له رّبا غفورًا , فيلتمس منه العفو في نفس خاشعة مؤمنة برحمة الله التي

وسعت كل شيء. قائلا:[1]

شَكَوْتُ إِلَيْكَ إِلَهِي عَسَى تَمُنَّ وَتَسْمَحَ بِالتّوْبِ عَاجِلْ
وَتَصْفَحَ عَنْ زَلَّتِي أ نَّنِي أَتَيْتُ ذَلِيلاً لِبَابِكَ سَائِلْ
فَما لِي سِوَاكَ وَ أَنْتَ الإِلَهُ الذِي لَا تَخِيبُ لَديْهِ الوَسَائِلْ

ويبدو أن الشاعر قد أعجب بالمعاني التي رددها القدامى ,أو أنها انسجمت مع واقع حياته فأخذ يرددها في صدور قصائد , على شاكلة ما نقرأ في بائيته التي يجزع فيها جزعا شديدا من المشيب يقول :[2]

أَصْبَحَ رَأْسِي مِنَ الشَّو ائِبْ وَهْوَ مِنَ الجَانِبَيْنِ شَائِبْ
يَالهْفَ نَفْسِي عَلَى زمَانٍ كُنْتُ لِثَوْبِ الشَّبَابِ سَاحِبْ
أَرْفُلُ فِي حُلَّة التَصَابِي بَيْنَ حَبِيبِ وَبَيْنَ صَاحِبْ
حَتَى بَدَا الشَّيْبُ فِي قَذَالِي بَادَرْتُهُ بِالسَّوَادِ خَاضِبْ
أَسْتُرُهُ كُلَّ حِينٍ حَتَّى عَمَّ مِنَ الرَأْسِ كلَّ جانِبْ
وَ أَقْبَلَتْ مِنْهُ لِي جُيُوشُ سِهَامُهَا لِلصِّبَا صَوَ ائِبْ
فَصَالَ شَيبِي عَلَى شَبَابِي صَوْلَةَ ذِي نَجْدَةٍ مُحَارِبْ
وَسَلَّ فِي العَارِضَيْنِ سَيْفًا أَضْحىَ بِهِ لِلشَّبَابِ ضَارِبْ
مَازَالَ يَسْطُوعَلَيْهِ حَتَّى ظَلَّ لِمَا قَدْ دهَاهُ هَارِبْ
وَقَدْ مَضَى مَعْهَدُ التَّصَابِي وَ أَقْبَلَ الشَّيْبُ فِي كَتَائِبْ

هكذا كان مقطع الشباب والشيب يحمل في الغالب صوراً قاتمة تحمل ظلالا من الحزن ,وتشيع أجواء نفسية قلقة ,إما حسرة على الشباب الذي تقضى دون أن يغتنم

[1]: نفسه ص:72

[2]: نفسه ،ص:72

فيه الشاعر فرصة للإعداد لأخرته وضيَّعه في انتجاع اللذات ومعانقة مغريات الدنيا وبريقها .وإما تفجعا على ما آل إليه من ضعف الكهولة وعجزها بعد أن حل بالرأس نذير الشيب ,هذا النذير الذي يعمق الإحساس بالندم ويصعد من مأساة الشاعر ,لأنه لم يجد في رصيده ما يلقي في نفسه السكينة أو يخلق أمامه فسحة من أمل النجاة .*

هوامش واحالات الدراسة :

(1): ابن رشيق القيرواني :العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ,ج1,تحقيق :محمد محي الدين , عبد الحميد , دار الرشاد الحديثة ,الدار البيضاء ,المغرب .

(2):ابن قتيبة : الشعر والشعراء , ط3, دار الإحياء والعلوم, بيروت ,1986.

(3): امرؤ القيس : الديوان ,دار بيروت للطباعة والنشر ,1972 .

(4): أبو زكريا يحيى بن خلدون :بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ,تحقيق ,عبد الحميد حاجيات ,ج2,المكتبة الوطنية ,الجزائر ,1980 .

(5) : حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء , تقديم وتحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة , ط3,دار الغرب الإسلامي ,بيروت ,لبنان ,1986.

(6): محمد بن عبد الله التنسي:تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ,مقتطف من نظم الذر والعقيان في بيان شرف بني زيان ,تحقيق :محمود بوعياد ,المكتبة الوطنية ,الجزائر ,1985 .

(7): سعيد الأيوبي :عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي ,مكتبة المعارف للنشر والتوزيع , الرباط

(8): عبد الحميد حاجيات :أبو حمو موسى الزياني ,حياته وأثار ه,ط2,الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ,1982

* القذال :جماع مؤخر الرأس من الإنسان :ابن منظور .لسان العرب .مادة "قذل" .المجلد الخامس .دار المعارف بمصر.ص:3561